بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث

أسلوب القرآن معجز ، وأسلوب الحديث مبدع ، والفرق بين الأسلوبين أوضح من أن يدل عليه ، وقد أحسن أستاذنا العالم المفكر الدكتور «محمد عبد الله دراز» برد الله بالرحمة مثواه حين أجمل الحديث عن الأسلوبين بقوله فى كتابه (النبأ العظيم) ص ١٠٦ :

«ونحن نرى الأسلوب القرآنى فنراه ضربًا وحده ، ونرى الأسلوب المحمدى فنراه ضربًا وحده ، ولا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلقات الطير فى جو السماء ، لا تستطيع إليها صعودًا ، ثم نرى أساليب الناس على اختلافها ضربًا واحدًا لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوًا ومنها ما يشتد عدوًا ، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية ، نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوى فتحاول اقتناصها كما تطمع فى اقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ ا لكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة: أم من كلمات الصحابة ، أم من كلمات التابعين؟ أما الأسلوب القرآنى فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه غيره ولا يجعل طامعًا يطمع فى أن يحوم حول حماه» .

هذا التحديد الحاسم الذى وضحه أستاذنا الدكتور « محمد عبد الله دراز » ، قد أوضح الفوارق الطبيعية بين أسلوب القرآن المعجز ، وأسلوب الحديث المبدع ، ونقول الفوارق الطبيعية لأنها فوارق منطقية عاقلة لا نشاز بها ، وليس ما يدرك منه رائحة الانتقاص للبيان النبوى فى شىء ، إذ إن بيان محمد ﷺ شعاع من شمس القرآن ، يترسمه ويستهديه ثم لا يحاول اللحاق به إذ كان تنزيلاً من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما محمد فهو وإن كان خاتم الأنبياء ،

يعترف بأنه بشر يوحى إليه ، ويقول فى بعض ما روى عنه: «إنما أنا بشر ، وأنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فيأخذها أو ليتركها»[1] .

وهذا القول لا يصدر عن إنسان يدعى ما ليس فى طوقه ، بل بقوله ﷺ مؤكدًا طابع البشرية فى نفسه ، وحسبه أن يكون بيانه أرقى بيان بشرى ، وأن المبدعين من بنى الإنسان إذا قيس بيانهم ببيانه ، جاء أدبه النبوى مجليًا وجاءوا لاحقين .

هذا التحديد الذى وضحه الدكتور دراز قد أشار إلى مضمونه مدره الإسلام «مصطفى صادق الرافعى» بأسلوبه القوى المفحم حين قال فى هذا المجال[2] :

«على أن أعجب شىء ، أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة (النبوية) إلى مثلها مما فى القرآن ، رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجزة وغير المعجزة سواء ، ورأيت كلامه ﷺ فى تلك الحال خاصة مما يطمع فى مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقًا ألبتة ، إذ لا تحس منه نفسًا إنسانية ، ولا أثرًا من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها حتى نأنس إلى ذلك على التوهم ، ثم نتوهم الطمع والمعارضة من هذه المؤانسة فتمضى عزمك ، وتقطع رأيك وتبت القول فيه ، كما يكون لك فى قراءة الكلام الإنسانى ، فإن لجميع هذا الكلام الآدمى منهاجًا ، ولجملته طريقًا ، وحدود البلاغة التى تفصل بعضه عن بعض كلها مما يوقف عليها بالحس والعيان ، ويقدر فوق ما بين بعضها إلى بعض مهما يوقف عليه بالحس ، ومهما بلغ من تفاوتها واختلافها فى الصنعة والغرابة، بيد أن ذلك مما لا يستطاع فى القرآن ، ولا وجه إليه بحال من الأحوال ، فما هو إلا أن تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المألوف وانسلت منه ،

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) « إعجاز القرآن » للرافعى ، ص ٣٦٦ .

وفاتت سمت ما قدرت لها من مطلع ومقطع ، فمهما وجدت لا تجد سبيلاً إلى حدها ، ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلامًا نعرف حده فى البلاغة إن لم يكن بالصنعة فبالحس» .

وإذًا ، فكلام محمد ﷺ على إبداعه لا يمكن أن يشتبه بكلام القرآن على إعجازه ، ومن قرأ القرآن قراءة منصفة لا تميل إلى الهوى ، ثم قرأ الحديث النبوى قراءة منصفة لا تميل إلى الهوى كذلك ، وكان لديه أقل بصر بأساليب الفصحى ونظمها البلاغى ، لن يقول إن القرآن صادر عن محمد.. فبينه وبين كلام محمد بون أى بون .

هذا البصر النافذ بأساليب الفصحى ، قد أعوز كثيرًا من المستشرقين ، فطفقوا يتحدثون عما أسموه بمصادر القرآن التى رجع إليها محمد فى تأليفه باعتباره فى زعمهم من وضعه ﷺ ، فمرة يجعلون يهود المدينة وما لديهم من التوراة أحد هذه المصادر ، ومرة يجعلون لقاء بحيرى الراهب موجهًا لمحمد وجهة قوية فى التفكير الإلهى ، ومرة يزعمون أن حنفاء الجاهلية من أمثال زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة قد جابوا بلاد النصرانية ثم رجعوا بتعاليمها إلى مكة فأخذ عنهم محمد ، ومرة يكون أمية بن أبى الصلت بما ساق من قصص السفينة والهدهد وبدء الخليفة مصدرًا أساسيًّا للتفكير النبوى فى صياغة القرآن ، ولو رزق واحد منهم معرفة الناقد بما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق ما تورط فى هذه الادعاءات التى تساق سوقًا عن غرض مريض ، ولكنهم - فى الأعم الأغلب - قد عرفوا اللغة العربية عن المعاجم وحدها ، ومن أساطينهم من لا يستطيعون أن يفرقوا بين أسلوب كاتب كابن المقفع ، وكاتب كبديع الزمان الهمذانى ، على بعد ما بينهما فى التفكير والتعبير ، فكيف يتبينون مع هذه الأعجمية الكثيفة فروقًا ما بين أسلوبى القرآن والحديث .

ولكن الداهية الدهياء هى ثقة بعض الكاتبين لدينا فى أقوالهم المريضة ، يأخذونها مسلمة مصدقة لا تقبل الجدل ، ومن هؤلاء من رزقوا حظًّا كبيرًا من صدق النظرة وسلامة الذوق ، ولكن الإعجاب المفرط بأساتذة الاستشراق قد غطى على عقولهم فحجب عنها الضياء ، ولو لم يخدرهم هذا الإعجاب المفرط ما قال ناقد حصيف كالدكتور « طه حسين » قولته الجريئة فى بعض دروسه الجامعية بكلية الآداب :

«كما أن هذا القسم (المدنى من القرآن) ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث، والوصايا ، والزواج ، والطلاق ، والبيوع ، وسائر المعاملات ، ولاشك أن هذا أثر واضح للتوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بهذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن»[1] .

كبرت كلمة ، فالبيئة اليهودية لم تثقف المهاجرين فى شىء ، ولم يكن الرسول صانع القرآن حتى يتأثر بثقافة اليهود تأثرًا يحدث ما سماه الدكتور بالتغيير الفجائى ، وقد أحسن أستاذنا الكبير الشيخ «محمد أحمد عرفة» حين عمد إلى هذه المزاعم ، فأتى على بنيانها من القواعد ، فى منطق دقيق وفهم عاقل ، فبين فى كتابه القيم «نقض مطاعن فى القرآن الكريم» الحكمة فى خلو القسم المكى فى القرآن من التشريعات الجزئية ، وعنايته بإثبات العقائد الأصلية والتشريعات الكلية ص ٦٧ من طبعة المنار ، كما بين فى وضوح ناصع أن القرآن لم يتعلم من اليهود فى شىء ، لأن القرآن قد عابهم ورماهم بتحريف التوراة وتزييفها ، وبين كيف فقدوا الأمانة ، واستحلوا الخيانة والبهتان فهم سماعون للكذب أكالون للسحت ، كما يحسدون

(١) « نقد مطاعن فى القرآن الكريم » ، ص ٧٠ .

الناس على ما آتاهم الله من فضله ، لذلك كان موقف القرآن منهم موقف المعلم لا المتعلم ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1] فكيف تكون بيئتهم المدنية بعد ذلك مثقفة يستفيد منها القرآن[2] .

لم يكن لمثل الدكتور طه وهو الخبير العارف بالأساليب العربية ، أن يجهل ما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق حتى يقيم حكمه المخطئ ، بأن اليهود قد ثقفوا المهاجرين ثقافة ظهر أثرها فى القرآن ، واتهام محمد باختلاق القرآن فرية قديمة تحدث عنها القرآن فى أكثر من موضع ، ورد عليه حين قال فى سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[3] .

والحق.. أن أسلوب القرآن ينطق بنبوة محمد نطقًا جهيرًا لا لبس فيه ، فقد خطب الرسول أكثر من خمسمائة خطبة على الأقل بين قوم هم أرباب الفصاحة ، وأبناء اللغة ، ثم جاءهم بالقرآن يختلف اختلافًا تامًّا عن أسلوبه فى الخطابة والحديث .. فلو كان القرآن والحديث من منبع واحد لظهر بعض التشابه بينهما فى خطبة قيلت فى موقف فجائى ، أو حديث سبق عرضًا ينبئ عن طابع رجل يفصل بين قوليه. أما والفرق بين أسلوبى القرآن والحديث أوسع الفروق ، وأوضحها لدى المعاصرين من أرباب الفصاحة ولدى التالين من فاقهى العربية لغة وأسلوبًا ، فكيف يكون مصدرهما واحدًا عند المنصفين؟

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) تراجع الصفحات من ٧١ – ٧٨ من كتاب نقض مطاعن للأستاذ محمد أحمد عرفة .

(٣) سورة هود : ١٣ ، ١٤ .

لقد شغل وجه الاختلاف بين أسلوبى القرآن والحديث نفرًا من ذوى البيان فى القديم والحديث ، وأتى كل بما لديه فى ذلك ، ولكنهم لم يصيبوا القول تمام الإصابة؛ إذ حاولوا أن يحددوا خصائص الإعجاز القرآنى فى مقررات علمية ، من نحو بلاغة النظم والإخبار بالمغيبات وقوة الجدل ، والتحدث عن السابقين ، وأحكام التشريع ، وذلك كله يغفل الروح الربانى المسيطر على الأداء سيطرة يعجز عن تحليلها أبلغ النقاد ، فأنت من القرآن فى روعة وجلال وسحر ، أما محاولة تشريح الأسباب الواضحة لهذه الروعة وهذا الجلال وهذا السحر فما لم يصل إليه ناقد بعد ، فكلها مظاهر ساطعة لشىء خفى ، كالكهرباء يدرك تأثيرها ولا يفهم كنهها ، ولعل الأستاذ العلامة «محمد فريد وجدى» رحمه الله قد قارب الحق حين أغفل[1] فى الحديث عن إعجاز القرآن ما يتردد من نحو بلاغة النظم ، وحسن الأداء وأحكام الفاصلة ، مما كرره البلاغيون بإفاضة وإسهاب ، ثم اتجه إلى القول بأن روحانية القرآن هى سر إعجازه ، وهى التى تشهد بآثارها ولا يعلم كنهها ، إنها من أمر الله وروح من روحه ، نقول: إن الأستاذ قد قارب الحق حين أغفل ما يتردد فى كتب القدماء من الحديث عن بلاغة النظم ، وحسن الأداء ، وأحكام الفاصلة ، لأننا نرى هذه الأوصاف مما يصادف أن يرد فى غير كلام الله ، ولو فى سطر أو سطرين أو ثلاثة ثم لا يكون معجزًا ، لأنه فقد الروحانية المهيمنة ، وهى أمر جامع عام يشمل الذكر الحكيم من ألفه إلى يائه ، بحيث أصبحت طابعًا مميزًا نعرفه بشدة النفاذ ، وقوة السطوة وباهر التأثير .

قال الأستاذ محمد فريد وجدى فى المجلد السابع من «دائرة معارف القرن العشرين» :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كل عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهة بلاغته ، فكتبوا عنه فى ذلك فصولاً ضافية الذبول ، وبعضهم خصها بالتأليف ،

(١) أغفل ذلك لكثرة ما قيل فيه وسعة تداوله فى كتب البلاغة ، وهو بلا شك مما يشير إلى بعض نواحى الإعجاز فى القرآن ، ولكنه لا يحصر كل النواحى ، وقد اعترف الأستاذ بذلك فيما سيجىء .

وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات إعجازه سلطانًا على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الإنسانى تسلطًا محدودًا لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئًا فشيئًا بتكرار سماعه ، حتى تستأنس النفس فلا يعود يحدث ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن ، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيد تأثيرًا ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه من مجال آخر ، يكفى لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحدين .

والعلة فى نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير من التأمل ، وهى: أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ** ﴾[1] ، فهو يؤثر بهذا التغيير تأثير الروح فى الأجساد ، فيحركها ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها ، فقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ** ﴾ يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة يتلألأ فى نورها الإلهى ، وتتألق فى جمالها القدسى؛ ذلك لما كان القرآن روحًا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجاز ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى – ص ٦٧٧ من المجلد السابع «دائرة المعارف الوجدية». ثم قال :

(١) سورة الشورى : ٥٢ .

«ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة ، وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة والفلسفة ، وحير أراكين النظام والدستور، وهو حق ألزم كل غال الحجة ودل على كل باحث على المحبة كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم الملك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك كله روح من أمر الله تصل من روح الإنسان ، حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر ص ٦٧٨ ج ٧ ثم قال :

«إن القرآن فوق البلاغة ، والعذوبة ، والحكمة ، والبيان روحانيةً يدركها من لاحظ له فى فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة ، ألا ترى أن الطفل والعامى كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن ، حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن لو أراد التالى أن يغشهما ؟

وهذه الروحانية تظهر جليًّا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة ، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور ، وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رائعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ» ص ١٧٩ ج ٧ .

نعلم من هذه المقتطفات: أن الأسلوب القرآنى قد امتاز بالروحانية الربانية التى تجعله نمطًا واحدًا من البيان العلوى ، وهذا سر إعجازه البليغ فى رأى العلامة الأستاذ «فريد وجدى» وهو ما يعوز أسلوب سواه ، وإن كان أبلغ البلغاء محمد ابن عبد الله ، والروحانية عند الأستاذ وجدى قريبة بعض الشىء من مدلول كلمة السحر التى عناها مناوئو القرآن من الجاهلين ، حين قالوا فيما يتحدث عنهم الذكر الحكيم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1] .

(١) سورة المدثر : ٢٤ .

حين أجبروا -كراهية - على الاعتراف بقوة تأثيره التى أشبهت تأثير السحر فى تقديرهم وسحر الأدب مما لا ينكر ، بعد أن قال محمد «ﷺ» : إن من البيان لسحرًا ، وأى بيان أروع من القرآن ، ولكن كلمة الروحانية نجد مدلولها العام ككلمة السحر: تطلق لتصور أقوى ما يحس به القارئ من التأثير دون أن تحدد أو تخصص ، وإذا كان لبعض أحاديث الرسول روحانية وضيئة ، فليس معنى ذلك أنها تشارك البيان القرآنى إعجازه ، ولكن روحانية الحديث أمر نسبى لا يرتفع إلى روحانية القرآن ، وقد كانت هذه الروحانية النسبية سر إبداعه لدينا كما كانت روحانية القرآن القوية الآخذة سر إعجازه لدى صاحب دائرة المعارف الوجدية رحمه الله .

ثم ماذا ؟

لقد حاول كثير من المفكرين - مع اعتقادهم الخالص بإعجاز البيان القرآنى - أن يعقدوا موازنة بين الأسلوب الربانى ، والأسلوب المحمدى وهذه الموازنة نافعة فى حد ذاتها - مهما تأكدت نتيجتها - لأنها ترد بالدليل المقنع على من يزعمون أن القرآن نمط من أنماط الأساليب المحمدية ، وهو زعم كاذب قد فضحه ما بين الإعجاز والإبداع من فرق شاسع فياح .

حاول أبو بكر الباقلانى - فى القديم - أن يوازن بين الأسلوبين ، فاستشهد بعدة أمثلة من كلام الرسول ، ولم يفصل القول فى كل مثال ، بل ذكره كما يجىء ، ليستدل من المجموع على أنه نمط آخر من البيان غير ما تعرف من نمط القرآن ، وقد بدأ هذه المحاولة بقوله[1] :

« والذى يصور عندك ماضمنا تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطًا ، وفى علم العربية متبينًا أن تنظر أولاً فى نظم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبى ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفروق بين الكلامين ، فإذا

(١) « إعجاز القرآن » للباقلانى ص ١٩٤ ، ط دار المعارف - تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

تبين لك الفصل ووقعت على جلية الأمر ، وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق، ولم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان .

ثم مضى الباقلائى يذكر النصوص الآتية من قول الرسول :

(أ) خطبة أولى مطلعها: «ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا» ص ١٩٦ .

(ب) خطبة ثانية مطلعها: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم» ص ١٩٧ .

(جـ) خطبة ثالثة مطلعها: «الحمد لله أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا» ص ١٩٧ .

(د) خطبة رابعة مطلعها : «أيها الناس أتدرون فى أى شهر أنتم» ص ١٩٨ .

(هـ) خطبة خامسة مطلعها: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده» ص ٢٠١ .

(و) خطبة سادسة مطلعها: «نضر الله عبدًا ، سمع مقالتى فوعاها» ص ٢٠٢ .

(ز) خطبة سابعة مطلعها: «ألا إن الدنيا خضرة حلوة ألا وإن الله مستخلفكم فيها» ص ٢٠٣ .

(ح) كتابه ﷺ إلى كسرى عظيم فارس. ص ٢٠٣ .

(ط) كتابه ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ص ٢٠٤ .

(ى) نسخة عهد الصلح مع سهيل بن عمرو عام الحديبية ص ٢٠٥ .

ثم ختم الباقلانى هذه المختارات النبوية بقوله ص ٢٠٦ :

«ولا أطيل عليك ، وأقتصر على ما ألقيته إليك ، فإن كان لك فى الصنعة حظ ، أو كان لك فى هذا المعنى حس، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم، وإن قل هذا السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ فى خطبه ورسائله .

فإن قلت: لعله أن يكون تعمل للقرآن ، وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه ، فثبت فى نفسك وأرجع إلى عقلك ، وأجمع لبك ، وتيقن أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام ، والمحافل الكبار، والمواسم الضخام، ولا يتجوز فيها، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الإخلال ، وكيف تعرض للتفريط ، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى ، وأن كلام النبى ﷺ من الأمر النبوى» .

هذا ما قاله الباقلانى ، نحن نصدق النتيجة التى انتهى إليها من أن نظم القرآن من الأمر الإلهى ، وأن كلام النبى ﷺ من الأمر النبوى ، ولكن المقدمات التى أفضى بها إلى هذه النتيجة لا تخلو من نظر ، فليس من الدقة الدقيقة فى مجال الموازنة الأدبية أن نذكر عدة نصوص نبوية كما اتفق دون أن تقرنها بنصوص قرآنية فى موضوعها ، ليتجلى للقارئ وجه الفروق بين الأسلوبين فى مجال واحد ، ولاشك أن القارئ المثقف يعرف هذه النصوص قبل أن يذكرها صاحب إعجاز القرآن ، وهو لا ينتظر منه فى مجال الموازنة بين القرآن والحديث أن يكتفى بالاستشهاد النبوى ، ليرى فى أسلوبه نمطًا يخالف نمط القرآن ، فهذا معلوم معروف ، وإذا اقتصر عليه الباقلانى فإنه فى اختياره السردى لم يأت بجديد على أن ما فات الباقلانى فى القديم لم يكن ليفوت باحثًا فاضلاً من المعاصرين تعرض إلى الموازنة الأدبية بين أسلوب القرآن والحديث ، فأتى بالنصوص المتفقة فى الموضوع من الجانبين ، ثم خلص إلى ما خلص إليه الباقلانى من النتيجة ، ذلكم هو العالم الأستاذ ، «مصطفى أحمد الزرقا» وزير العدل السورى الأسبق ، وأحد أساتذة الجامعة بدمشق ، حيث كتب بحثًا معتدلاً فى مقالين بمجلة لواء الإسلام عددى شعبان ورمضان سنة ١٣٧٩ تحت عنوان: «مقارنة بيانية بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن ، ونستأذن القارئ أن نطيل بعض الشىء فى اقتباس فقراته حيث ألم بالموضوع إلمامًا يغبط عليه ، وقد كان من السهل علينا أن نستعين بأفكاره مضافة إلى ما يتولد لدينا من الأفكار دون أن

نسرف بعض الشيء فى النقل عنه ، ثم نكتفى بالإشارة إليه كمرجع ، ولكن الاعتراف بالحق يدفعنا إلى أن نسجل للرجل فضله كاملاً غير منقوص ، ثم إلى أن ننقل الرائع من فقراته حيث يقول :

« فالحديث النبوى جاء كله على أسلوب المعتاد للعرب فى التخاطب: تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والخطابة فى صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض ، ولكنه يتميز من الكلام العربى المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية ، وأن فيه أحكامًا فى التعبير ، وجمعًا للمعانى بأوجز طريق وأقربه دون حشو ، مما استحق به التسمية بجوامع الكلم ، فهو كلام عربى من الطراز المعتاد المألوف ، ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة ، أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه ، والسامع شبيهًا له فيما يعرف من كلام العرب ، وأساليبهم يعالج الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ فى عموم لا تشبهه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجويد ما يجعل له طابعًا خاصًّا منقطع النظير» .

ثم قال الأستاذ بعد جولة موفقة فى هذا المجال :

«فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ، ومن الحديث النبوى أحاديث فى موضوع تلك الآيات نفسه ، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافى» .

١- فلنأخذ مثلاً قول القرآن العظيم فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

وللنظر مقابلة فى المعنى نفسه قول النبى ﷺ :

« لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

٢- ولنأخذ مثلا فى موضوع الإخاء فى الدين قول القرآن العظيم فى سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١) .

ولننظر مقابلة فى نفس المعنى قول النبى ﷺ :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومعنى يسلمه: أن يتركه لعدوه ، فلا يحميه ولا يمنعه منه » .

٣- ولنأخذ أيضًا قول القرآن العظيم فى موضوع الإخاء الإنسانى العام ، والتآلف والتفاضل بالتقوى والصلاح ، لا بالعرق والنسب ، ولا بالمال والحسب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢) .

ولننظر فى المعنى نفسه أقوال النبى ﷺ التالية :

« أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

«المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

٤- ولنأخذ أيضًا قول القرآن العظيم فى ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وللنظر فى مقابلة قوله ﷺ : «إقامة حد بأرض ، خير لأهلها من مطر أربعين صباحًا» .

٥- ولنأخذ أيضًا قول القرآن فى وجوب أداء الأمانة والحكم بالعدل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[2] .

وللنظر فى مقابلة أقوال النبى ﷺ :

«أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك» .

«ما من أحد يكون على شئ من أمور هذه الأمة ، فلم يعدل فيهم ، إلا كبه الله فى النار..» .

« لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع» .

ومضى الأستاذ فى بحثه المقارن إلى آخر الشوط فأمتع وأفاد ، وكأنه تعمد أن يسد ثغرة واضحة بدت فى دفاع الباقلانى السابق ، حين اقتصر على الاستشهاد بالحديث دون ما يتضمن الموضوع من كتاب الله ، وأذكر أن الأستاذ الباحث «عبد الرحيم فودة» قد تعرض إلى موازنة بارعة بين آية من كتاب الله هى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ

(١) سورة البقرة : ١٧٩ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وبين حديث نبوى هو قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[2] .

ثم أفاض فى تحليل النصين إفاضة شافية مستوعبة ، حيث وازن بين الكلمات كأجزاء ، والآية والحديث كمجموع ، وانتهى إلى مثل ما انتهينا إليه من الحكم بالطابع الإلهى للقرآن ، وبالسمة النبوية للحديث الشريف ، وما يسعنا أن ننقل ، فيكفى أن نشير .

هذا ولن يظن أحد أننا بهذه المقارنة الأدبية نحاول أن نغض قليلاً من البيان المحمدى ، فالأدب النبوى أرفع أدب بشرى تحدر عن لسان ناطق ، وله طابعه الإنسانى الناطق بكل ما يمس الإحساس البشرى الراقى من مؤثرات ، كما أن للبيان القرآنى طابعه الإلهى الذى ينطق بعظمة الله وسيطرته وقدرته وجبروته ، وإن اختلاف الطابعين لدليل على أصالة الأسلوبين كل فى بابه ، وقد استشهد الأستاذ مصطفى الزرقا بصدد اختلاف الشخصية فى الأسلوبين بروائع زاهرة من القرآن والحديث ، ولعلى أعذر حين أعود هنا إلى الاقتباس والاستشهاد عنه من مقاله الحصيف ، لأن مجال الموازنة بين أدبين مختلفين مظنة الشطط لدى الكثيرين ، فما ظنك بمجال الموازنة بين بيان القرآن وبيان الحديث؟ والإنسان ضعيف برأيه الخاص إذا انفرد به ، قوى كل القوة بغيره إذا وجد من مفكرى الكتاب من يؤكدون اتجاهه بدقة واستيعاب ، وفى مقدمتهم الأستاذ الزرقا إذ يقول :

«عندما تسمع القرآن تجلى لك من خلال كلامه ذاتية تتكلم من جو علوى ، وقوة ، وسطوة ، وقدرة ، وحكمة ورحمة ، وهذه الذاتية القوية العظمى التى تتجلى

(١) سورة القصص : ٨٣ .

(٢) « لواء الإسلام » رجب ١٣٧٩ .

من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى فى المواطن التى تعبر فيها عن الرحمة ، وإن قوتها واحدة فى جميع سوره وآياته ، فهى ذاتية جبارة قوية قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة ، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ذات سلطان مطلق ، تتصورها مثلاً من خلال الآيات الآتية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(١) . ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(٢) . ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾(٣) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٤) .

«أما الحديث النبوى ، فإنك تشعر وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعتريها الضعف والقوة ، ولكن قوتها من لون آخر ، ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة ، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى ، فكثيرًا ما نشعر من أسلوب الحديث النبوى بشخصية تعتز بهذا الضعف الذاتى أمام الله ، إلى جانب

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٢) سورة الإسراء : ١٦ .
(٣) سورة فاطر : ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) سورة يس : ٧٧ : ٧٩ .

اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق ، ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد ، إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأمناء ، فانظر وتصور هذه الشخصية فى لون قوتها من خلال قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما هددته قريش فنصحه عمه بترك الدعوة» :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وتصورها فى شعورها بالضعف الذاتى من خلال الأدعية المأثورة عن النبى ﷺ فى مناجاة ربه بعدما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان :

« اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، إلى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى ، أم إلى قريب ملكته أمرى ، إن لم تكن ساخطًا علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك أو تنزل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[1] .

هذه نماذج كاشفة توضح الفرق بين أسلوب وأسلوب ، وهى فى مجموعها تؤكد ما فصلناه فى فصل سابق تحت عنوان: «القرآن أستاذ محمد» بمعنى أنها توضح السمات البارزة لبيان الأستاذ وأدب التلميذ.. وفى ذلك غناء..

* * *

(١) « لواء الإسلام » ص ٣٥ ، عدد رمضان سنة ١٣٧٩ .